

## العبرة من السفر

02July 10

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن الناس في هذه الدنيا يسرون ويحزنون، ويجمعون ويفترقون، ويصحون ويمرضون، ويقيمون ويسافرون، ولكنها تختلف مشاربهم ومقاصدهم في سفرهم.

والذي يهمننا أن الناس وهم يسافرون في سفرهم المباح أو الواجب يقل ويندر من يتعظ ويعتبر في سفره في هذه الدنيا في سفره الحقيقي، وهو السفر إلى الدار الآخرة.

وفي الإجازة الصيفية خاصة يكثر الناس من السفر، فربما نجد أن بيوتاً سافر جميع أفراد الأسرة في رحلة واحدة، وربما سافر كل شخص منهم لوحده، وكل واحد من هؤلاء وقبل أن يسافر يعد العدة، يأخذ الزاد والرحلة الكافية التي توصله إلى هدفه، بل ربما أخذ الواحد منهم في سفره ذلك ما يكفيه من المتاع الذي من السهل عليه تحصيله وجمعه، لثلاثة أضعاف ما يحتاجه في سفره الدنيوي.

وهذا السفر كما قلنا إن كان واجباً فإن الإنسان يؤجر عليه، وإن كان مباحاً فلا يثاب ولا يعاقب عليه، ولا حرج عليه في ذلك؛ فقد جاء حنظلة بن عامر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشكو إليه الغفلة عن الطاعة أثناء ملاعبة الأطفال ومعاشرة النساء، فقال: نَافِقَ حَنْظَلَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ نُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُوْمُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذَّكْرِ لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) -البخاري- والناس في هذه الدنيا إما أن يسافروا للتخلص من مهروب أو للحصول على مرغوب؛ قال العلامة ابن قدامة -رحمه الله-: السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب منه، أو الوصول إلى مرغوب إليه. والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السموات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقنه بالتقليد من الآباء، لازم درجة القصور، قانع برتبة النقص، ومستبدل بمتسع عرضه السموات والأرض ظلمة السجن، وضيق الحبس.

ولكن الذي أحب أن أقوله لنفسي ولمن عزم على السفر المباح أو الواجب أن يأخذ العظة والعبرة في سفره الدنيوي الذي قد يستمر شهراً أو شهرين أو أربعة أشهر أو أكثر، في سفرهم الحقيقي، الذي مدته طويلة، ومسافته بعيدة -الله أعلم بمدته-، والناس لهذا السفر جميعهم مسافرون، والتعامل فيه بأمر من الصعب على الإنسان جمعها وتحصيلها إن لم يجمعها قبل سفره، (إنها الحسنات)، وهو السفر الطويل والشاق السفر إلى الدار

الآخرة.

فالمسافر في هذه الدنيا لا بد له من قوت يقتات به أو قيمة ذلك، ولا بد له من مركوب يحمله إلى المكان الذي يقصده، وهذا سهل ميسور. والناس في سفرهم الدنيوي كما يقال أذكياؤ وحذاق، يعملون ويكدون في توفير زادهم وراحلتهم، بل إن الواحد منهم يخاف ويهرب من أن يسافر بلا زاد وراحلة، وخاصة إذا كان مع رفقة، فلوا قيل لأحدهم تعال فساfer معنا، قال: أنا لست مستعداً للسفر الآن، لم أرتب أوضاعي، ولم أستأذن أهل بيتي، ولم أعد عدتي، وزادي وراحتي في سفري، ولكن سألحق بكم قريباً- إن شاء الله.

ونسى هذا المسافر وأمثاله سفره الحقيقي إلى الدار الآخرة تلك الدار التي هي دار غير هذه الدار.

قال الشاعر:

**تزود من معاشك للمعاد \*\*\* و قم لله و اعمل خير زاد**

**و لا تجمع من الدنيا كثيرا \*\*\* فإن المال يجمع للفساد**

**أترضى أن تكون رفيق قوم \*\*\* هم زاد وأنت بغير زاد**

فزاد الدار الآخرة غير زاد هذه الدار، وذلك لاختلاف الدارين، فزاد هذه الدار الدينار والدرهم، وزاد تلك الدار الإيمان والعمل الصالح(التقوى)؛ قال تعالى: **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** سورة البقرة(197). فإنه لا ينفع الإنسان في قبره إلا التقوى و العمل الصالح. وهذه لها سبب نزول وهو أن أهل اليمن كانوا لا يتزودون ويقولون - نحن متوكلون- ونحن نحج بيت الله، أفلا يطعمنا؟! فيكونون كلاً على الناس، ويمدون أيديهم فنزلت فيهم: **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب-البقرة-197** يبين سبب النزول أن الإنسان لا بد أن يتوكل على الله، ومن توكله على الله أن يأخذ بالأسباب التي شرعها الله، فقد أمر الله في هذه الآية بالتزود في السفر الدنيوي، ولكنه أرشد عباده إلى التزود للسفر الحقيقي، وهو السفر على الدار الآخرة.

قال الشاعر:

**إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى \*\*\* و لاقيت بعد الموت من قد تزودا**

**ندمت على أن لا تكون كمثلهم \*\*\* وارصدت كما كان**

الخطبة الثانية

ارصدا

أيها المسافرون: في هذه الدنيا لتعلموا أننا غير مقيمين ولا مخلدين في هذه الدار، بل إن درا إقامتنا الحقيقة هي الدار الآخرة. ولتعلموا كذلك أن سفرنا إلى الدار الآخرة حتم لا بد منه، وهو سفر لا خيار لنا فيه، ولا ندرى متى يكون؛ قال الله -تعالى-: **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** سورة المؤمنون(99-100) . وقد حذر النبي-صلى الله عليه

وسلم-من اتخذ هذه الدنيا وطناً ومسكناً؛ فعن ابن عمر-رضي الله عنه-قال أخذ رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بمنكبي، فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك-البخاري. فالغريب بعيد عن أهله ووطنه وأقاربه لا يتعلق قلبه ببلد الغربة، وإنما قلبه متعلق دائماً بوطنه الأصلي الذي هو دار إقامته الحقيقية، فهو يحن ويئن إليه، ولا شك أن موطن ومنزل بني آدم الأصلي هو الآخرة.

والمسافر أو عابر السبيل: إنما هو سائر في قطع منازل السفر، حتى يصل إلى مراده ومقصوده، ولا شك أن آخر سفر لنا هو الموت، فمن كان هكذا فهمه وهتمته في تحصيل الزاد للسفر، وليس له هم في الاستكثار من حطام الدنيا الفاني، ولذلك كتب بعض السلف إلى أخ له رسالة يقول له فيها: يا أخي يخيل لك أنك مقيم، بل أنت دائب السير، تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت موجه إليك، والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارٍ عليك حتى يكرَّ عليك يوم التغابن.

ومما أنشدته بعض السلف:

**إنا لنفرح بالأيام نقطعها \*\*\* وكل يوم يدني من الأجل**

**فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً \*\*\* فإنما الربح والخسران في العمل**

وهذا الخليفة الرابع علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- يقول: إن الدنيا قد رحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز في بعض خطبه: إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منه الظعن، فكم من عامر موثق عن قليل يخرب، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا-رحمكم الله- منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى. وفي الأخير إن على المسافر في هذه الدنيا وهو يسافر على هذه البسيطة أن يتذكر سفره الحقيقي إلى الدار الآخرة (دار الإقامة الحقيقية) فيعد العدة لذلك السفر الحقيقي. وعليه أيضاً وهو يسافر في هذه المعمورة ويفارق الأهل والأولاد، والأحبة والأوطان لمدة معلومة أن يتذكر وحدته وغرخته في سفره الطويل الذي لا يعم مداه إلا الله. وعليه كذلك وهو يكابد عناء ومشقة السفر في هذه الدنيا؛ فإن السفر قطعة من العذاب أن يعلم أن السفر إلى الدار الآخرة أشق وأعظم منه، ذلك أن أمام المسافر إلى الدار الآخرة أخطار عظام، وأهوال جسام، فأمامه سكرات الموت، وحياة البرزخ؛ الذي فيها ضغطة القبر، وسؤال منكر ونكير، ثم الحشر والحساب، ثم الميزان والصراط، ثم الجنة أو النار- نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة-. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين